طاغور شاعر الهند

لو أن نبيًا من أنبياء العصور الأولى قد حلّ في هذه الأرض في عصرنا المتأخر، ما اختار من بقاع المعمورة موطئًا لقدميه غير هذا الشرق الذي لايزال مبعث السحر ومصدر الروحانية والإيمان، وما تقمص شكلاً إلا جسد طاغور بطلعته المهيبة، وملامحه الوادعة الرزينة، وشعره المتهدل، ولحيته الكثة، وعينيه الواسعتين اللتين تشعان ببريق غريب يغمر النفوس خشوعًا ويستهوي الألباب.

ذالكم رابندرانات طاغور شاعر الهند الأكبر الذي أدركته منيته في اليوم السابع من شهر آب في كلكتة من أعمال البنغال، وكانت هذه المدينة نفسها قد شهدت مولده منذ ثمانين سنة في اليوم السادس من أيار سنة ١٨٦١.

نشأ الفتى طاغور في كنف أسرة جمعت الجاه واليسار إلى العلم وحب الإصلاح فكان جده وأبوه من زعماء البراهمة الذين إدركوا جمود الهندكية فسعوا جهدهم لتهذيبها وابراز لبابها دون قشورها وإعادتها إلى الينبوع الصافي الذي تحدرت منه. وقد ملكت هذه النزعة الإصلاحية مشاعر الصبي النابغة، كما أشربت نفسه مبادئ الصوفية البرهمية التي تقدس مظاهر الطبيعة وتدمج الكون بالقوة المبدعة العظمى.

وكيف لا تكون هذه العقيدة المنتزعة من صميم الروح الهندية جبلة في هذا الفتى المتحدّر من اعرق الأرومات البرهمية، وهو قد درج في هذه البيئة التي توحي بالعظمة والخشوع وتجذب المخلوق نحو الخالق، في هذه الأراضي المترامية الأطراف، الطافحة بالمياه الغزيرة المتدفقة، المتموجة بالألوان الزاهية الخلابة، الخاضعة لعناصر الطبيعة الهوج من مطر وابل وحر لافح، الزاخرة بالحياة النباتية والحيوانية الوافرة؟

شد الفتى طاغور رحاله الى الربوع الانكليزية لينهل من علومها وعمره لايتجاوز الستة عشر ربيعًا، لكنه لم يصبر على دراسة القانون فيها كما أربد على ذلك، بل اكتفى باتقان لغتها والتزوّد من أدبها. ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث أكب على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

التبحر في علوم الهند وآدابها ، وأخذ يكتب وينظم ، فلم يلبث أن ابتكر لنفسه طريقة في الشعر طريقة اقتبسهامن صميم البرهمية وأسبغ عليها من روحه صفة خاصة ميزتها وحببتها إلى النفوس . وأسس في سنة ١٩٠١ مدرسة على مقربة من كلكتة أطلق عليها اسم « مغنى السلام » لتخريج النشء البنغالي على أسلوب جديد يقرب بين الماديات والروحيات ويجمع العمل إلى نزعات التصوف والتأمل . وكانت حياة الشاعر بعد ذلك ملأى زاخرة ، فوضع التآليف والدواوين العديدة ، وجاب انحاء اوربة وأميركة والمشرقين . وقد نقلت أشعاره إلى الانكليزية وسواها من اللغات الحية ، فافتتن العالم الغربي الغارق في حضارته المادية بهذه الأناشيد الروحية الساذجة المنبعثة من أعماق الشرق البعيد . وطبقت شهرة قائلها الآفاق وخلعت عليه القاب العلم والشرف ومنح جائزة نوبل العالمية للآداب ، وهي جائزة لم ينلها من الأدباء الشرقيين سواه .

وقد زار طاغور بغداد في شهر أيار ١٩٣٢ بدعوة من الملك فيصل الأول طيب الله ثراه ، فأتيح لي شرف التعرف به والتحدث اليه ، إذ انتدبت لاستقباله بالنيابة عن وزارة الخارجية ، واجتمعت به أثناء مكوثه في العاصمة العراقية مرات .

احتفت عاصمة الرشيد بشاعر الهند أيما احتفاء ، وأقامت له المآدب والحفلات وكان شاعر العراق المرحوم جميل الزهاوي على رأس اللجنة التي تولت اكرام وفادته ، فكان اجتماع الشاعرين مثيراً لأرق المشاعر في نفسيهما على الرغم من افتقارهما إلى أداة التفاهم اللسانية . واذا كانت مأدبة عاهل العراق العظيم لضيفه الشاعر قد رمزت إلى جلال الملك وكرامة القريض ، فإن حفلة أدباء العاصمة في مساء ٢٢ أيار قد مثلت تكريم مدينة السلام للشعر والأدب في شخص هذا الشاعر الزائر . ولقد ظفر شهود تلك الحفلة برؤية شاعر الهند وشاعر العرب مجتمعين إلى مائدة واحدة وسماعها ينشدان قصيدهما كل بلسانه المختار . وأي بون بين هذين الشيخين الملهمين ، الفتيين بروحيهما ، المتشابهين بشعرهما المسترسل المشتعل شيباً ! لقد مثل الأول الوقار والرزانة ، فوقف يلقي شعره وكأنه قد غاب روحاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وجسماً في مناجاته حتى لم يبد حراكاً ، وانبعث صوته من قرار ذاته هادئ النبرات ، رتيب النغمات ، رقيق الخلجات . اما شاعر العراق فمثل الطموح والاندفاع فانطلق جسده المبتلى بالشلل في حركات متدافعة متعاقبة ، وارتفعت عقيرته بصرخات ساميات يضبطها إيقاع الوزن ورنين القافية . ولئن كان الشيخ الهندي قد رمز بسكونه الى وقار الشرق الخالد وحكمته ، فقد كان الشيخ العراقي رمزاً الى انعتاق الشرق المتوثب واشتياقه إلى النهضة والحياة .

إن العراق قد عرف لشاعر الهند قدره كما عرفه له العالم الغربي . ولعلنا نتساءل عن السر في هذا التقدير الاوربي والأميركي للنبوغ الشرقي ، فجدير بنا أن نعلم أن الهند تكبر طاغورها وتعظم شأنه لعوامل تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي تحدو بالغرب إلى اكباره والاعجاب به : فالهند تحترم شاعرها قبل كل شيء لمنزلته في العالم المتمدن ، كما تكبر فيه نزعته الاصلاحية . فهو قد رمى في القول والعمل الى تهذيب الشوائب العالقة بالبرهمية التي يدين بها القسم الأكبر من الهنود ، ورفع مستوى الحياة الشعبية وانقاذها مما يخيم عليها من جهل وخمول ، وازالة الفوارق التي تباعد بين الطبقات الهندية فتجور على أدناها وتشل الحياة القومية والوطنية . وقد حاول هذا الشاعر الفيلسوف ان يطلق دين آبائه وأجداده من قيود التنافر والجمود ، وان ينزع به نزعة جديدة تفسح لأتباعه مجال الاخذ بالحضارة العملية الحديثة وتسمو بهم في الوقت نفسه إلى مراقي التأمل الروحي والانطلاق الفكري . وحاول هذا الشاعر العامل بعد ذلك أن يحسن معيشة أبناء وطنه من حيث الصحة والعلم والرفاهية ، ليقضي على الآفات التي تنخر جسم الأمة من مرض وجهل وبؤس مدقع ، فعرف له أبناء وطنه هذه المنة ، وترنموا بشعره الذي يعرب عن هذه الرغبات الاصلاحية الجياشة ويفصح عن سعادة النفس بالطبيعه الساذجة ، الراضية بوداعتها ، المطمئنة الى الحياة .

أما الغرب المسحور بطاغور فقد أخذ بترانيم غير مألوفة غمرت اجواءه بفيض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من الهدوء والسكينة في وسط هذا العالم المضطرب ، المصطخب ، المتلاطم الأمواج .
ولعلّ النغمة التي خلب بها الغرب لم تكن من ابداع طاغور وان أوقعها على قيثارته : فهذه النغمه تمت الى الصوفية البرهمية بسبب وثيق ، وقد انتزعها الشاعر الهندي من آيات دينه القديم ، واستلهمها من خوالج روحه الثملة ، فكساها حللا قشيبة زاهية تقرب من أذهان الغربيين المعاصرين وتحبب الى نفوسهم الظامئة .

إن البرهمية دين قديم تطورت عقائده وشعائره على مرّ الأزمان ، وقد ألّه منذ أحقاب بعيدة قوى الطبيعة الخارقة متشخصةً في كائنات سلية تشرف من عليائها على هذا الكون الذي اقتطعته من ذاتها المعبودة وبسطت عليه أجنحة هيمنتها وسلطانها . واذا كان الدين الهندكي قد قسم أشياعه الى طبقات عالية وسافلة ، فإنه قد خصّ اعلاها مرتبة — وهي طبقة البراهمة — برفعة كان لزاما أن تنزع بها الى مثل أعلى ، وسيلته التسامي بالنفس وكبح جماح أهوائها والتبحر في المعرفة الإلهية بالدرس والتأمل والتقشف ، وغايته تطهير النفس من ادرانها والانفلات من قيود المادة والفناء في الذات الصمدانية . وقد وعد المختارون الاقلون الذين يبلغون في هذا المسلك مرتبة الكمال بالتحرر من العودة الجسمانية الى الحياة الدنيا وفاقًا لمبدأ التناسخ ، والاندماج بالكون الأعظم حالما ينطلقون من أسر الجسد الفاني .

وقد انتزع طاغور فلسفته وتصوفه من هذه العقائد بعد تعديل وتنقيح ، واستطاع أن يصبّ تلك الفلسفة وهذا التصوف في الحان عذبة ساذجة أخاذة . فتغنى بشوق المخلوق الضعيف الى المبدع الأعظم ، وظمأه الى استكناه الحقيقة الازلية ، ونزوعه الى الانطلاق من عقال المادة التي تربطه بالحضيض الأوهد والسمو الى عالم الروح الخالص حيث النشوة الخالدة والسعادة السرمدية . وأفصح الشاعر في أغاريده أيضًا عن العواطف الجائشة بين جوانح الإنسيّ الواهن ، من حب وبغض ورغبة ورهبة وطموح وقصور وشك ويقين وحيرة وطمأنينة وشقاء وهناءة ، ووصف الطبيعة في حاليها من الحركة والسكون ، حين تضطرب بعناصرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهوامها وطيرها وحيوانها أو حين يخشاها هدوء الوجود الاعظم فتمتلكها الدعة والخشوع ...

لكن شعر طاغور لم يقتصر على تلك المنازع الصوفية والفلسفية بل تعداها الى موضوعات عديدة أوثق وشائج بالحياة البشرية ، فصور القرية والمدينة والطفولة والكهولة وغير ذلك من الشؤون التي لاتحصيها هذه العجالة . وآمن طاغور بتآلف البشر وتآخي الشعوب ، فدعا الى التعارف والتآزر وتوسل بالأدب الى إزالة الضغائن والقضاء على الفوارق وتوحيد الكلمة على التعاون والتقارب . فلا بدع أن أصبح هذا الشاعر الهندي شاعراً انسانياً تردد ألحانه بمختلف اللغات واللهجات ، وتستعذب أشعاره في المشرق والمغرب ، ويقرن اسمه في حياته بالأقلية المختارة من النوابغ العالميين الذين استطلعوا خفايا الوجود ورتلوا أناشيد الخلود .

إن الحضارة الغربية الرازحة تحت أعباء المادة قد شخصت ببصرها نحو الشرق منزل الوحي ومبعث الالهام ؛ فلما بلغت مسامعها أشعار طاغور ، أرهفت أذنيها مصغية الى هذه الأنغام الروحية المستلذة ، الآتية من عالم بعيد .

بغداد : صبر البصري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net